الفصل الرابع

ابن المعتز
وكتابه طبقات الشعراء

يعد ابن المعتز (ت 296هـ) حالة أدبية متفردة فى تاريخ ثقافتنا العربية، هذا التفرد يرجع إلى كونه شاعرا مجيدا، ويمتلك خصوصية شعرية ميزته عن غيره من الشعراء، وكذلك هو باحث أديب له عدد من الكتابات النقدية والبلاغية البارزة، منها كتاب " البديع " وهو مرجع أساسي من مراجع البلاغة العربية، وهو أول كتاب يحمل هذا الاسم الذى صار علما على علم من علوم البلاغة العربية، ومن بين مؤلفاته أيضا الكتاب الذى نعرض له الآن "طبقات الشعراء".

لم يكن ابن المعتز معاديا للحداثة الشعرية فى عصره أو قبله بقليل المتمثلة فى شعر مسلم بن الوليد وأبى تمام، إنما حاول أن يؤصل لهذه الحداثة عن طريق رد الطرائق التى قامت عليها إلى أصولها التراثية، فذهب إلى القول بأن الاستعارة والجناس والطباق وغيرها من الألوان التى تميز بها شعراء الحداثة أو قل اقترنت بهم لها ما يوازيها فى الثقافة العربية المتمثلة فى الثقافة الدينية القرآن الكريم والسنة النبوية، وفى التراث الشعرى عند الشعراء المتقدمين، وأن ما قام به أمثال أبى تمام هو محاولة لاقتفاء هذا الأثر، لكنه اقتفاء من وجهة نظره يؤخذ منه ويرد، بمعنى أنه أجاد فى أشياء وأخفق فى أشياء، وكما يقول ابن المعتز تلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف.

يكشف هذا الوعى النقدى عن معرفة ابن المعتز بتطور الشعر العربي، واهتمامه الواضح بالشعراء المحدثين فى كتابه

طبقات الشعراء، يقول ابن المعتز فى مقدمة كتابه عن سبب تأليفه الكتاب " عقد الفكر طرفي ليلة بالنجوم، لوارد ورد عليّ من الهموم، نفض عن عيني كحل الرقاد، وألبس مقلتي حلل السهاد، فتأملت فخطر على الخاطر في بعض الأفكار، أن أذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار، في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس، ليكون مذكوراً عند الناس،متابعاً لما ألفه ابن نجيم قبلي بكتابه المسمى طبقات الشعراء الثقات، مستعيناً بالله المسهل الحاجات،وسميته طبقات الشعراء المتكلمين، من الأدباء المتقدمين

فكان أول ترجمة ابن نجيم بشار بن برد وما له من الأشعار والآثار فنظرت في ذلك أن أجمعهم في هذا الكتاب، فرأيت الاختصار لأشعارهم عين الصواب، ولو اقتصيت جميع ما لهم من الأشعار لطال الكتاب، وخرج عن حد القصد، فاختصرت ذلك وذكرت ما كان شاذاً من دواوينهم، وما لم يذكر في الكتب من أشعارهم، واقتصرت على ما كان من مطولات قصائدهم، وبالله الاستعانة والتوفيق، وإليه المرجع والمآب، وما توفيقي إلا بالله، وعليه فليتوكل المتوكلون، ومنه يطلب الطالبون، وهو حسبي ونعم الوكيل "

إذا أعدنا قراءة هذا المفتتح نجد أن الهدف من الكتاب ،وهو**السمة الأولى** فيه أن يكون شاملا لما قيل فى مدح الخلفاء والأمراء من بنى العباس، وهو أمر يتفق مع الشاعر الذى صار خليفة للمسلمين، كما أنه يرسخ لقصيدة المديح بوصفها النموذج الأرقى

فى الكتابة، وهو أمر يتفق مع كونه شاعرا كتب الكثير من المدائح ليس من باب التكسب بالشعر لكن من أجل أن يقدم للممدوح آية شكر على خدمته فى بناء صرح دولة بنى العباس، ويصف لنا د محمد شريف محقق ديوانه هذا الممدوح بقوله " ممدوح ابن المعتز هو ذلك الرجل الذى يسند أركان الدولة العباسية، ويدافع عن كيانها أ؟ن يزول خليفة كان الممدوح أو أميرا، وزيرا أو قائد جيش أوعالما يضيف إلى صرح الحضارة الإسلامية لبنة ترفع هذا الصرح" (مقدمة الديوان 1/ 180)

السمة الثانية التى يمكن أن تلاحظ فى هذا المفتتح هو اتباع ابن المعتز لسنة المؤلفين قبله، فقد ذكر أن ابن نجيم ألف كتابا أسماه طبقات الشعراء الثقات، وهو ما هداه إلى أن يسمي كتابه طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء المتقدمين ؛ أى إنه اتفق مع ابن نجيم أن يجعل للشعراء طبقات أى منازل، كما فعل ابن سلام عندما وضع طبقات لفحول الشعراء،وفكرة التراتب أو الطبقية هذه تتفق أيضا مع هذا العصر الذى عاش الناس فيه ملوكا وعبيدا، كان المتلقي في هذا المجتمع صنفين: طبقة الحكام ومن معهم وعامة الناس باختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية، وقد حاول النقاد ترسيخ هذا المفهوم يقول (ابن طباطبا ت 322هـ) متحدثاً عن بناء القصيدة "فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ويتوقى حطها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلي درجات الملوك. ويعد لكل معني ما يليق به ولكل طبقة ما يشاكلها حتى تكون الاستفادة من

عقله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه". وعلى اعتبار أن الممارسة تسبق النظرية، فإن هذا التنظير لابد أنه مسبوق بممارسة مجدها ابن طباطبا والمجتمع الحاكم. ومع ذلك فإن الجاحظ (ت 255هـ) في كتابه "التاج في أخلاق الملوك" يرى أكثر من ذلك، فإن العامة من الناس لا يحق لها أن تعزى طبقة الخلفاء؛ لأنها لا تصل إلي هذه المكانة. إنه فصل حاد يستحسن معه الابتعاد عن تشبيههم مكانة بمن هم أقل منهم، أو أن يأتوا كما أتى بهم أبو تمام دون هالة من التقديس والبطولة والإعجاب.

كما ينبه أن الصفة "المتكلمين" التى لحقت بالموصوف (الشعراء) لا تشير إلى الشعراء الذين اشتهروا بعلم الكلام، لكنها جاءت نعتا يتناسب مع فهم ابن المعتز للشعراء بوصفهم أمراء الكلام كما كان يقول الخليل بن أحمد، وإذا كنت قد ذكرت أن هذا الكتاب يأتى فى إطار جهده لحركة الشعراء المحدثين، فكل محدث يصير قديما بالنسبة لمن يأتى بعده، وعلى هذا فقول ابن المعتز "طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء المتقدمين"، يعنى به المتقدمين على الوقت الذى كتبت فيه الدراسة، ولعل هذا ما يفسر لماذا أهل ابن المعتز بعض الشعراء المعاصرين له من الأحياء.

السمة الثالثة أنه يريد أن يتوخى منهجا يقوم على الانتقاء والاختيار، حيث يقوم بذكرالشاعر دون أن يستقصى كل ما كتبه من أشعار، كما يشير إلى أنه فى سبيل ذلك يكتفى بمطولات قصائدهم .

السمة الرابعة فى المنهج المتبع فى الاختيار، حيث أشار إلى أنه راجع دواوين هؤلاء الشعراء، كما راجع الكتب التى تتعرض لهؤلاء الشعراء ؛ أى إنه لايقتصر على ما جاء فى دواوينهم لأنه قد يشذ /❖ أو/ يند أشياء لم يذكرها ناسخو الدواوين، وهذا ما يقوم به العلماء المجيدون.

كانت هذه الخطة /الإستراتيجية التى بنى عليها ابن المعتز كتابه، ويبقى التساؤل هل كان ابن المعتز وفيا لهذا المنهج فى عرضه للكتاب، هذا مايمكن أن نجيب عنه من خلال تحليل بعض تراجمه للشعراء، وقد اخترت نموذجين الطائيين أباتمام والبحترى .

(1) أخبار أبي تمام بن أوس الطائي

حدثني أبو الأسود الموصلي قال قال الحسن بن رجاء الضحاك: كنا مع أمير المؤمنين المؤمنين المعتصم بالرقة فجاء أبو تمام، وأنا في حراقتي، فجعل ينشدني ويلتفت إلى الخدم والغلمان الوقوف بين يدي، ويلاعبهم ويغامزهم وكان الطائي من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً - فقلت له: يا طائي قد ظننت أنك ستصير إلى أمير المؤمنين مع الذي أرى من جودة شعرك، فانظر: إنك إن وصلت إليه لا تمازح غلاماً ولا تلتفت إليه،

فإنه من أشد الناس غيرة، وإني لا آمن إن وقف منك على شيء أن يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد منهم مائة صفعة. فقال: إذاً أخرج من عنده ببدر مملوءة صفعاً.

وحدثني عبد الصمد الراوي قال حدثني محمد بن حسان الضبي قال: قدمت بأبي تمام معي من الشام إلى العراق، وكان معي في سفينتي منجم قد حملته في حملتي، فكان الطائي قد أولع به يضربه ويخرق ثيابه، فكنت ألومه على ذلك وأعذله، وأقول: ويحك، رجل قد صحبنا، ووجب حقه علينا، لم تفعل به مثل هذا؟ والله ما هذا فعل الكرام، ولا من شأن أهل الأدب. وكان من جوابه لي أن قال: هذا من عض بظر أمه، لو كان منجماً، وكان يعلم شيئاً كما يزعم، لما ركب معنا هذه السفينة، وأنا أضربه هذا الضرب وأوذيه هذا الأذى

وحدثني أبو الغصن محمد بن قدامة قال: دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى، فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إلي فسلم علي، فقلت له: يا أبا تمام إنك لتنظر إلى الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصيرك عليها! فقال: والله ما لي إلف غيرها ولا لذة سواها، وإني لخليق إن اتفقدها أن أحسن. وإذا بحزمتين: واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزهما من دون سائر الكتب، فقلت: فما هذا الذي أرى من عنايتك به أؤكد من غيره؟ قال: أما التي عن يميني فاللات، وأما التي عن يساري فالعزى، عبدهما من عشرين سنة. فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني، وعن يساره شعر أبي نواس ومما يستملح من شعره - وشعره كله حسن - داليته في المأمون التي أولها:

"كشف الغطاء فأوقدي أو أخمدي"

وهي أشهر من الفرس الأبلق، وكذلك كل ما نذكر من قصائد ها هنا، فإنا نقتصر على ذكر أوائلها نحو قوله:

"وأبي المنازل إنها لشجون"

وقوله:

"سرت تستجير الدمع خوف نوى غد"

وقوله:

"أصغى إلى البين معتزاً فلا جرما"

وقوله:

"دمن ألم بها فقال سلام"

وقوله:

"بدلت عبرة من الإيماض"

وقوله:

"الحق أبلج والسيوف عواري"

وقوله:

"السيف أصدق أنباء من الكتب"

وقوله:

"نسج المشيب له قناعاً مغدفا"

وقوله:

"خشنت عليه أخت بني خشين"

وقوله:

"خذي عبرات عينك من زماعي"

وقوله:

"يوم الفراق لقد خلقت طويلاً"

لو استقصينا ذكر أوائل قصائد الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً، لأن الرجل كثير الشعر جداً، ويقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ماله جيد، والرديء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط. فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا، وقد أنصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال: جيد خير من جيدي، ورديي خير من رديه، وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره على أن للبحتري المعاني الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام، ومسروق من شعره. وأبو تمام هو الذي يقول

يـا لابسـاً ثـوب الملاحـة أبلـه ... فلأنـت أولى لابسـيه بلبسـه
م يعطـك اللّٰه الـذي أعطاكـه ... ل حتى استخف ببدره وبشمسه
رشـأ إذا مـا كـان يطلـق طرفـه ... في فتكـه أمـر الحيـاء بحبسـه
وأنـا الـذي أعطيتـه عـض الهـوى ... وضـممته فأخـذت عـذرة أنسـه
وغرسـته فلـئن جنيـت ثمـاره ... ما كنت أول مجتنٍ من غرسه
مولاك، يا مولاي، صاحب لوعة ... في يومـه وصـبابة في أمسـه

وهو القائل:

محمـد بـن حميـد أخلقـت رممـه ... هريـق مـاء المعـالي مـذ هريـق دمـه
تنبهـت لبنـى نبهـان يـوم ثـوى ... يد الزمان - فعاثت فيهم- وفمه
رأيتـه بنجـاد السـيف محتبيـاً ... كالبدر لما جلت عن وجهه ظلمه
في روضة قد كسا أطرافها زهر ... أيقنـت عنـد انتبـاهي أنهـا نعمـة
فقلت والدمع من حزن ومن فرح ... في اليوم قد أخضل الخدين منسجمه
ألم تمت يا شقيق النفس مذ زمن ... فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

(2) أخبار البحتري

واسمه الوليد بن عبيد ويكنى أبا عبادة حدثني علان بن محمد قال

هجا البحتري أبا الفضل بن الحسن بن سهل، فتركه أياما وأظهر قلة المبالاة والإهمال لهجائه، ولم يظهر الموجدة بذلك. وحضره يوماً فقال له: يا أبا عبادة. تبيعني غلامك نسيماً؟ فقال: كيف أبيعك من لو فارقته ساعة فارقتني روحي؟ فقال: أعطيك به رغيبة فقال: وكم تعطيني؟ قال: أعطيك ألف دينار. قال: لا أفعل.

قال: أعطيك ألفي دينار، فقال له: أحضر المال. فباعه وتسلمه أبو الفضل. فما مر للبحتري يوم حتى قامت قيامته، وندم، فواصل غدوه برواحه إلى باب أبي الفضل يسأله الإقالة وهو يأبى عليه، فلما عيل صبره كتب إليه:

أبا الفضل في تسع وتسعين نعجةً ... غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الهوى ... فؤادي له فيما أسرّ وما أبدي
وتغدو عليه صبوتي وصبابتي ... ولم يعده وجدي ولم يأله جهدي
وقلت: اسلُ عنه، والمنية دونه ... وكيف سلو ابن المفرغ عن بُرد

المفرغ شاعر كان له غلام اسمه برد فباعه وندم. وله فيه أشعار كثيرة - فقال أبو الفضل أبيعكه بجميع ما تملك، فقال له: أفعل. فباعه بجميع ملكه وأشهد عليه ورد الغلام إليه، فلما كان من الغد، رد عليه الكتاب وأقاله من جميع ذلك، وحمل إليه صلة وقال له: إياك أن تهجو الأحرار، فإن لهم مكايد يضل فيها هجوك ومدحك